﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

[الصافات: 154 - 157]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

على كلِّ دعوى بيِّنةٌ، ولا بيِّنةَ للمشركين على زعمهم الكاذب

لـمّا ذكرتِ الآيات السابقةُ مزاعمَ المشركين الباطلةَ، من إثبات الأولاد لله ﷻ، وزَعْمِهم أنَّها من جنس الإناث لا من جنس الذكور؛ أبطل سبحانه دعاويَهم، وبكَّتهم بالإتيان بالأدلَّة على ما يفترونه[1]، فطالبهم أن يأتوا بحُجَّة واضحة، وبرهان مبينٍ على زعْمِهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحْكُمُونَ﴾: (حكم) أصلٌ واحد، وهو المَنْعُ، فالحُكْمُ هوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ؛ لأنَّها تَمْنَعُها، والحِكمَةُ هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهلِ[2]، والحُكمُ أعمُّ من الحِكمَة، فكلُّ حِكمَةٍ حُكمٌ، وليس كلُّ حُكمٍ حِكمَةً، فإنَّ الحُكم أن يُقضَى بشيءٍ على شيء، فيقول: هو كذا، أو ليس بكذا[3]، والمعنى هُنا: تَقْضونَ بالحُكم الجائر في حقِّ ربِّ العالمين، وهو أنَّهم نسبوا أخَسَّ الجِنسين وما يتطَيَّرون منه، ويتوارى أحدهم من قومه - عند بشارته به - إلى ربِّهم، ونسبوا أحسن الجنسين إلى أنفُسهم[4].

2) ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: (ذكر) أصلان، أحدهما: ذَكَرْتُ الشَّيء، خلاف نسيتُهُ، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيء وتَذَكُّرُه، ثم حُمِل عليه الذِّكر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الراغب، المفردات: (حكم).
(4) السّمين، الدّر المصون: 9/ 334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

باللِّسان، أي: جَرْيُ الشَّيء على لسانك[1]، فهو ما ذكرْتَه بلسانك، وأظهرْتَه، والذِّكْرُ: الصَّلاة للّه تَعالَى، والدُّعاء، والثَّناءُ، وقِراءَة القُرآن، والتَّسبيحُ، والشُّكْرُ، والطّاعة[2]، ويأتي الذِّكر بمعنى الوعظ؛ لأنَّه إذا تذكَّر؛ قد يزدجر[3]، ومعنى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ هنا: تتَّعظون، وتنزجرون عن قول الباطل.

3) ﴿سُلْطَانٌ﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّة والقهر، ومنها قيل للوالي: سلطان، وسُمّيت الحُجَّة سلطانًا؛ لأنَّها تهجُم على القلوب، أو لأنَّها تقهَر المُنكِرَ، أو المُعارِضَ على التَّسليم، ولا يُقال للحُجَج: سلاطين، لجرَيان السُّلطان بمعنى الحجَّة مَجرَى المصادر، وسَلاطة اللِّسان هي: القوَّة على القول، وأكثر ما تُستعمَل في الذَّمِّ[4]، والسُّلطان هنا: الحُجَّة والبرهان[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

توبيخُ المشركين على كَـذِبهم، وتحدّيهم بأنْ يأتوا بالدَّليل عليه

تُخاطب الآيات الكريمة المشركين توبيخًا على قولهم وزعمهم بأنَّ البناتِ للّه تعالى، بقولها: بئسَ الحكمُ تحكمون - أيُّها القومُ - أن يكون للّه البناتُ، ولكم البنون، وأنتم لا ترضَون البناتِ لأنفسكم، فكيف تجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم؟ أفلا تتذكَّرون أنَّه لا يجوز، ولا ينبغي أن يكونَ للّه ولد؟ تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، أم لكم حُجَّةٌ بيِّنة على قولكم وافترائكم؟ إن كانت لكم حُجَّة في كتابٍ من عند اللّه؛ فأتوا بها إن كنتم صادقين في قولكم[6].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (ذكر).
(2) الأزهري، التهذيب: (ذكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلط).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/ 503، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/ 385.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 642، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

بـيـانُ افـتـراء المشركين بحكم بـاطـل ووصـفٍ آثم

فُصِلَ قَوْلُ الله تَعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾ [الصافات: 153]؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنَزَّلُ الثّانية من الأولى منزلة نفسها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾ [الصافات: 153]، فإنَّ إنكار اصطفاء البنات يقتضي عدم الدَّليل في حكمهم ذلك، فأبدل ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ من إنكار ادِّعائهم اصطفاءَ الله البناتِ لنفسه[2]، لبيان أنَّ حُكمَهم باطلٌ في خلوِّه عن الدَّليل.

غرضُ الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

مباغتةُ الغائب الآثـم تـوبـيـخٌ مـبـين وتـقـريـع متين

انتقل النَّظمُ الكريم في قَوْل الله تَعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ إلى ضمير الخطاب - بعد أن سيقت الآياتُ السّابقة بضمير الغَيبة من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾ [الصافات: 151 - 153] - على سبيل الالتفاتِ، والغرض البلاغيُّ منه هو تقريع المشركين وتوبيخهم على مقالتهم الباطلة، الَّتي لا تستند إلى نقل ولا إلى عقل[3]، فإنَّ للالتفات شأنًا في مجابهة المخاطَبين لتقريعِهم والازدراء عليهم.

غرضُ الاستفهام بـ﴿مَا﴾:

الإنـكـارُ على المشركين فيما أتوه من البهتان العظيم

تضمَّن قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهامًا بـ﴿مَا﴾ فأفاد الإبهام، وبسبب هذا الإبهام كانت كلمة (ما لك؟) ونحوها في الاستفهام يجب أن تُتلى بجملة حال تُبَيِّنُ الفعل المستفهَمَ عنه نحو: ﴿مَا لَكَ لَا

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 182.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331.

تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 11]، وقد بُيِّنَتْ هنا بما تضمَّنتهُ جملة: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. وغرض الاستفهامِ توبيخ المشركين والإنكار عليهم عمّا استقرَّ لهم، وثبت حتّى قالوا ما قالوه من البهتان العظيم[1]، فإنَّ هذا الحكم لمّا صدر عنهم في حقِّ الله تعالى لم تكن عقولُهم حاضرة، ولم تكن قلوبهم متفكِّرة، فوجَّه لهم هذا الخطاب الاستفهاميَّ ليوقِفهم على أنَّهم أتَوا المنكرَ العظيم، وأنَّهم في حالٍ لم يتمكَّنوا معها من الحكم الصّائب.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

إذا اختصَّ الإنسانُ بحماقةٍ كان لها ظلمةٌ في حكمه

دلَّ حرفُ اللّام في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ على الاختصاص المتعلِّق بمعنى الاستقرار، أي: ما استقرَّ لكم أيُّها المشركون، واختصصتم به حتى تحكموا بهذا الحكم الجائرِ مِن نسبة أخسِّ الجنسين - وهو الإناث - إلى الله سبحانه مع كونكم لا ترضونه لأنفسكم؟ كأنَّه قيل لهم: ما الذي أصابكم مِنَ الغفلة والحماقة والإغراب حتى قلتم ما قلتم؟ وما الذي اختصصتم به من الوصف المُزري بالعقلاء؟.

نكتةُ فصْلِ الاستفهامِ عن الاستفهامِ:

استفهام الحال يُبيِّن الاستفهام المُبهَم

فُصل قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ لأنَّه جاء بيانًا وتفصيلًا لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾؛ فلمّا كانت ﴿مَا﴾ موغلةً في الإبهام؛ اقتضى ذلك أنْ تُتلى بجملةِ حال تُبَيِّنُ الفعلَ المستفْهَمَ عنه، فبُيِّنَتْ هنا بما تضمَّنته جملة: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، فهو استفهامٌ يُبيِّن استفهامًا، والفصل لكمال الاتِّصال.

دلالةُ الاستفهام بـ﴿كَيْفَ﴾:

أداة الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

(1) السّمين، الدّر المصون: 9/ 334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

في موضع الحال من ضمير ﴿تَحْكُمُونَ﴾، وقد قُدِّمت لصدارة الاستفهام، وآثر النَّظمُ الكريم الاستفهامَ بالأداة ﴿كَيْفَ﴾ دون (ماذا)؛ لأنَّها اسمُ استفهامٍ عن الحال، فالمعنى: (ما حالكم وصفتكم الَّتي اتَّصفتم بها لمّا حكمتم هذا الحكمَ الباطل، ونطقتم بهذا القول الزّائف؟)، ففيه مزيدُ توبيخٍ لما أنَّ الإنكار قد انصبَّ على الحال الَّذي صاحبهم في هذه المقولة، فهو إنكارٌ توبيخيٌّ، ملتصقٌ بهم ما داموا ناطقين بما نطقوا به.

الإنكارُ التَّوبيخيُّ مُصاحبٌ لكلِّ مفترٍ على الله سبحانه

دلالةُ الفعل ﴿تَحْكُمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مادَّة الحكم في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ لدلالته على أنَّ افتراءَ المشركين كان صادرًا عن عنادٍ بالغ، لا عن رأي طائش، فهُم أحكموا قيلَهم بعناد الشِّرك، وتكذيب الحقِّ، وجاء الفعل ﴿تَحْكُمُونَ﴾ بصيغة المضارع دلالةً على أنَّ ما صدر عنهم في الماضي استمرَّ معهم إلى حين الخطاب، وهو ما يُناسب الإنكارَ عليهم.

عنادُ المشركين مستمرٌّ منذ لحظة الضَّلال إلى حين الخطاب

بلاغةُ الإيجاز في تتابُعِ الاستفهامَيْن:

توالى في قَوْل الله تَعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهامانِ: أحدهما عن الشَّيءِ الَّذي حصل لهم؛ ليحكموا هذا الحكم، وثانيهما عن الحالة الَّتي اتَّصفوا بها لمّا حكموا هذا الحُكم الباطل، وفي هذا إيجازُ حذفٍ تقديرُهُ: (ما لكم تحكمون هذا الحكمَ؟ كيف تحكمونه؟)، وحُذِف متعلِّق ﴿تَحْكُمُونَ﴾؛ لِما دلَّ عليه الاستفهامان من كون ما حُكِّموا به مُنْكَرًا يحِقُّ العجبُ منه، فكلا الاستفهامين إنكارٌ وتعجيب[1].

ازدحامُ دلالتَي الإنكار والتَّعجيب توبيخٌ على البهتان العجيب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

دلالة الاستفهام بالهمزة:

جاء قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مصدَّرًا بحرف الهمزة، وهي تدلُّ هنا على الاستفهام الإنكاريِّ. والفاء للتَّفريع، فقد فرَّع الاستفهام الإنكاري لتوبيخهم عن عدم تذكُّرهم واستبعاد حصوله منهم، وعدم تفهُّمهم فيما يصدر من أحكام باطلة.

دلالة فاءِ ﴿أَفَلَا﴾:

الاستفهام مفرَّعٌ على المذكور، أو معطوفٌ على محذوفٍ

عَطَفَتِ الفاءُ في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ على محذوفٍ مفهوم من السّياق، أي: (أعَمِيتم عن الحقائق، وضللتم عن الشواهد، فلا تتذكَّرون بطلان قولكم؟)، أو التَّقدير: (ألا تلاحظون ذلك؟ فلا تتذكَّرون بطلانه؟)، فإنَّه مركوزٌ في عقل كلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ، وهذا على تقدير المعطوف عليه المحذوف بعد الهمزة، ويحتمل أن تكون مقدَّمةً من تأخير، والأصل: (فألا تذكّرون؟)، فقُدِّمت الهمزة على الفاء؛ لأنَّ لها الصَّدارة[1]، ويكون المعطوف عليه مذكورًا في السّياق المتقدِّم، والفاء تفريعُ استفهامٍ على آخر.

بلاغةُ اختيار ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

ليس بين نفوس البشر وطبيعة الفِطَر إلّا أن تتذكَّر

استعمل النَّظمُ الكريم مادَّة الذِّكر في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لتقريع المشركين وتوبيخِهم على عدم التَّذكُّرِ، والتَّذَكُّرُ: التَّأمُّلُ، وهو بهذه الصّيغة لا يُطْلَقُ إلّا على ذِكرِ العَقْلِ لمعقولاته، أي: حركته في معلوماته، فهو قريبٌ من التَّفكُّرِ، إلّا أنَّ التَّذَكُّرَ لمّا كان مشتقًّا من مادَّة الذِّكرِ الَّتي هي في الأصل جريان اللَّفظ على اللِّسان، والَّتي يُعَبَّرُ بها أيضًا عن خُطورِ المعلوم في الذِّهن بعد سهوه وغيبته عنه؛ كان مشعرًا بأنَّه حركة الذِّهن في معلومات مُتَقَرِّرَةٍ فيه مِن قبلُ[2]، ومجيءُ هذا الفعل بصيغة المضارع دالٌّ على استمرار

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 208، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.

المشركين في جهلهم، وعدمِ تذكُّرهم وتجدُّد الغيِّ منهم، وباستمرار غيِّهم يستمرُّ الإنكار عليهم.

لطيفةٌ في توجيهِ قراءاتِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

اختلفَ القرّاءُ في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فقرأ حمزة والكسائيُّ وخلفٌ وحفص بتخفيف الذّال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتَّشديد: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾[1]، فوجهُ قراءة التَّشديد: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ أنَّ أصلها: (تَتَذَكَّرون)، فأُدغم تاء تفعَّل في الذّال؛ لقُرب مخرجَيهما، ووجهُ قراءة التَّخفيف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّه على حذف إحدى التّاءين، وهي الثّانية[2]، وقد روعي التَّخفيف في كلتا القراءتين، غيرَ أنَّ التَّخفيف في قراءة التَّشديد كان بإدغام الحرفين المتقاربين تسهيلًا، وفي القراءة الثّانية حصل التَّخفيف بالحذف، ولعلَّ في هذا التَّخفيف إشارةً إلى حثِّهم على أنْ يحصُلَ منهم أدنى تذكُّر، فيعلموا بُطلان مقالتهم[3].

اختلافُ المباني دالٌّ على اختلاف المعاني

نكتة حذف متعلّق التَّذَكُّر:

حُذِفَ مفعول التَّذَكُّر في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، إمّا لإفادة العموم، فيشمل كلَّ ما هو مغروزٌ في النَّفس البشريَّة، مِن غير أن يُقصدَ النَّصُّ على مفعول معيَّنٍ[4]، وإمّا لتنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم، فيُفيد التَّركيز على فعل التَّذَكُّر في حدِّ ذاته، والاقتصارَ على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المجرَّد في الشَّيء دون التَّعرُّض للمعمول[5]، فيُجعل المتعدّي كغير المتعدّي في أنَّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصَبًّا إلى

الإنكارُ على المشركين انتفاء التَّذكُّر عنهم فعلًا ومفعولًا

(1) ابن الجزري، النشر: 02/ 266.
(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 279.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 09/ 264.
(4) الخطيب القزويني، التلخيص، ص: 127.
(5) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

غرض مِن الأغراض؛ جُعل سياقه له وتوجُّهُه إليه، كأنَّ ما سِواه مرفوضٌ مُطَّرَح[1].

نوعُ ﴿أَمْ﴾ ودلالتها:

الانتقالُ من الاستنكار إلى المطالبة بالاستدلال

﴿أَمْ﴾ في قَوْل الله تَعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ - على أصحِّ الوجوه - منقطعةٌ غيرُ متَّصِلة بما قبلها ألبتَّة، وهي تُفسَّر بحرف (بل) معَ همزةِ الاستفهام، أي: (بل ألَكم سلطان مبين؟)، ومعناها الإضرابُ الانتقاليُّ[2].

بلاغة الاستفهام بـ﴿أَمْ﴾:

التَّعجيب من حماقة المشركين في إفْكِهم المبين

يتجلّى في قَوْل الله تَعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أسلوبُ الاستفهام الإنكاريِّ الَّذي تقتضيه ﴿أَمْ﴾، والغرضُ منه الإنكار والنَّفي، فالمعنى: (ما لكم سلطانٌ مبين)، فأنكر أن تكون لهم حجَّةٌ على ما قالوه مِن أنَّ الملائكة بناتُ الله، كما أنَّ في الاستفهام عن دعوى المشركين بصيغة الإنكارِ أثرًا في تلقّي السّامع هذه الدَّعوى بمزيد الاشمئزازِ والتَّعجُّب من حماقة أصحابها[3].

معنى لامِ الجرِّ:

إبطالُ استقرارِ دليلٍ واضحٍ عند المشركين، يختصّون به عن غيرهم

دلَّ حرفُ اللّام الجارَّةِ في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ على الاختصاص المتعلِّق بمعنى الاستقرار، أي: (أم استقرَّ، وثبت لكم سلطانٌ مبين، واختصصْتُم به، حتى تحكُموا بهذا الحكم الجائرِ، مِن نسبة أخسِّ الجنسين - وهو الإناث - إلى الله سبحانه، مع كونِكم لا ترضونَهُ لأنفسكم؟).

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّم شبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾ على المبتدأ ﴿سُلْطَانٌ﴾، في قول الله

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 103، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 170.

تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ لغرض المبالغة في الاختصاص الَّذي دلَّت عليه اللّام، والمقصودُ نفْيُ اختصاصهم بسلطان مبين على ما قالوه من البهتان العظيم[1].

بلاغةُ التَّعبير بالسُّلطان نكرةً:

مطالبةُ الوضيعِ بأعلى الرُّتبِ تهكُّمٌ كاشفٌ وبيانٌ فاضح

آثرَ النَّظم الكريم استعمالَ السُّلطان في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ لزيادة التَّهكُّم بالمشركين، فإنَّ مِن شأن مَنِ ادَّعى مثل ادِّعائهم أن يأتيَ على كلامِه بسلطان يتَّصف بالقوَّة الحاكمة على الدَّليل المذكور، ولمّا طولِبوا بالسُّلطان، وهم لا يملكون أقلَّ الأدلَّة على ما يقولون؛ كان ذلك تهكُّمًا بهم، وجاء اللَّفظ منكَّرًا، لإبهامه وعدم تعيينِ المراد منه؛ للدَّلالة على اتِّساع مجال المعارضة والتَّحدّي للمشركين في الإتيان بأيِّ سلطان مهما كان، وفي هذا غايةُ التَّبكيت والتَّعجيز لهم.

فائدةُ الوصف بلفظ ﴿مُّبِينٌ﴾:

تأكيدُ معنى التَّهكُّم والتَّعريض بالسُّلطان المبين

وُصِف السُّلطان في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾، الَّذي جاء على وزن مُفْعِلٍ بمعنى فَعيلٍ، فقد اشتُقَّ (المبين) مِن أبانَ يُبينُ إبانَةً، فَهوَ مُبينٌ، بمعنى الظُّهور، والباء والياء والنّون أصل واحد، وهو بُعد الشَّيء وانكشافه[2]، ومعنى السُّلطانِ المبينِ في الآية: الحجَّة الموضِّحة للحقِّ[3]، وأكَّد هذا الوصفُ معنى التَّهكُّم المراد في الآية، فإنَّ السُّلطان المطلوب ليس أيَّ سلطان، بل هو مبين، مع ما في الوصف من التَّعريض بالسُّلطان المبين الَّذي جاء به سيِّد المرسلين.

نوعُ الفاءِ ودلالتها الرّابطة:

من جملة السُّلطان المبين كتابٌ مِن عند الله، لكنَّهم كاذبون على الله

الفاءُ في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ للتَّفريع والتَّرتيب، فقد تفرَّع على إنكار أنْ تكونَ لهم حجَّةٌ بما قالوا:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

خطابُهم بالإتيان بكتابٍ من عند الله على ذلك إن كانوا صادقين فيما زعموا، أي: فإن لم تأتوا بكتابٍ على ذلك؛ فأنتم غير صادقين[1]، وتحتمل أن تكونَ الفاءَ الفصيحةَ، وهي الَّتي تفصح عن شرط مقدَّر، والتَّقدير: إن كان عندكم سلطان مبين؛ فأتوا بكتابكم[2].

بلاغةُ اختيارِ مفردة الإتيان:

تعجيزُ المشركين عن الاستدلال لزعمهم زيادةٌ في التَّهكُّم بهم

أوثِرَ في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ استعمالُ مفردة الإتيان لما فيه من الإشارة إلى يُسر إحضار الموجود، وهو الكتابُ المُفترض، ولمّا كان الكتابُ لا وجودَ له؛ كان هذا مِن باب المبالغة في التَّهكُّم بالمشركين، بأنَّ الإتيان بسلطان مبينٍ على افترائهم سهْلٌ عليهم، فلمّا عجزوا؛ دلَّ ذلك على كذبهم وافترائِهم، كما أنَّ في التَّعبير بالإتيان احتمالَ جلبِ الشَّيء وإحضاره، سواء بالاسترفاد من الآخر، أم بالاختراع من الجالب، فأفاد التَّوسعةَ عليهم في التَّحدّي، بمعنى: (سواءٌ كان الإتيانُ من قِبَلِهم أم مِن جهةٍ أخرى تقوم مَقامَهم؛ ليظهر عجزُهم من جميع الجهات)[3].

غرضُ الأمر ودلالته:

تبكيتُ المشركين بإظهار عجزِهم وفضحِ كذبهم

الأمرُ بالإتيان في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ليس على حقيقته، بل خرجَ مخرجَ التَّعجيز، بجعلهم كالمأمور بالإتيان، فيعمدون إلى التَّنفيذ، فلا يستطيعون، فيكون ذلك أشدَّ تبكيتًا وتقريعًا[4]، ويرادُ بهذا التَّعجيز: التَّحدّي؛ إذِ المقامُ مقامُ إظهار عجزِهم عن إثبات ما قالوه بدليل العقل والنَّقل، فإنَّهم إن حاولوا ذلك بعد سماعِهم الأمر، ولم يمكِّنهم؛ ظهر عجزُهم، وبان للعَيان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.
(2) درويش، إعراب القرآن: 08/ 317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 19.
(4) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331.

دلالةُ الإيماءِ في خطابِ الجمع:

الخطابُ شاملٌ لكلِّ مُفترٍ على الله هذا الافتراءَ

لمّا جاء الأمرُ في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بصيغة الجمع؛ دلَّ على أنَّه موجَّهٌ إلى جميع المخاطَبين الَّذين افترَوُا الافتراءَ المبين، والَّذين تابعوهم من أصحاب التَّقليد المتين، فالخطاب لا يختصُّ بمعيَّنين وقتَ نزول القرآن فحَسْب، بل يتناول كلَّ مَن يصدُر عنه هذا البهتانُ على امتداد الأزمان، ويدخل فيه المشركون وقت النُّزول دخولًا أوَّليًّا، كما يؤذِن التَّعبيرُ بصيغة الخطاب قوَّةَ حجَّة القرآن في دحضِ شبهات الكفّار في كلِّ زمان ومكان، ولو اجتمعوا كلُّهم على أن يأتوا بسلطانٍ واحدٍ على زعمهم لن يأتوا به.

نكتةُ إضافة الكتاب إلى الضمير:

انتفاءُ الخبر الصّادق والعقل الرّاجح دليلُ البهتان الفاضح

أضيفَ لفظُ الكتاب في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ إلى ضميرِ المشركين عَلَى وجه الفرض، كما دلَّ عليه قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، والمعنى: (فأتوا بحجَّتكم من كتابٍ جاءكم من عند الله بأنَّ الَّذي تقولون: إنَّ له البنات، ولكم البنين، حقٌّ وصدق، فإنَّ مثل هذا يُعلَم بالخبرِ أو العقل، والعقل الصَّحيح يردُّه، والخبر لا وجودَ له، فثبت كذبُكم وافتراؤكم؛ فإذا لم ينزل عليكم كتاب سماويٌّ، فيه ذِكرُ ذلك الحكم، فلِمَ تُصِرّون على الكذب والبُهتان؟)[1].

نكتةُ استعمال أداة الشَّرط ﴿إن﴾:

التَّشكيكُ بصدق المخاطَب يُثير العجزَ جِهارًا

جاء أسلوب الشَّرط في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ باستعمال حرف ﴿إن﴾ الدّالِّ على قلَّة تحقُّق الوقوع، دون (إذا) الدّال على قوَّة مظنَّة الوقوع، وذلك لأنَّه الأنسب بالسّياق، فصدقُهم في دعواهم غيرُ ثابتٍ، وجعْلُهُ شرطًا للإتيان بالكتاب المتضمِّن السُّلطانَ المبين زيادةُ نفيٍ وتعجيز.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 643، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 283.

غرضُ أسلوب الشَّرط:

افـتراضُ صدق المشركين تهكُّمٌ يـلـوي عـلى الكاذبين

مجيءُ الشَّرط في قول الله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ﴾؛ للتَّعريض بكذب المشركين وافترائهم ومجانبتهم الحقَّ فيما قالوه من البهتان، فإنَّه لمّا كان كذبهم فيما قالوه معلومًا، كان قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ﴾ استهزاءً وتهكُّمًا بهم؛ إذ جُعِل الصِّدق ممّا يمكن أن يتَّصفوا به، وهو كقولك لأحد الجبناء: إن كنت شجاعًا؛ فالقَني، ومعلوم أنَّ اللِّقاء ممتنعٌ مِن جهته[1]، فجاء الشَّرطُ على وجه التَّهكُّم بهم؛ لأنَّ فيها إطماعًا بتحقُّق الشَّرط مع العلم باستحالته[2].

نكتةُ حذْفِ جواب الشَّرط:

حـذْفُ المعلوم إطـلاقٌ للفكرِ وتحريكٌ للنَّفس

جوابُ الشَّرطِ في قول الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه ما ذُكِرَ قبلَه، والتَّقدير: (إن كنتم صادقين أنَّ الله اصطفى البناتِ على البنين؛ فأتوا بسلطان مبين على ذلك)، فلمّا انتفى إتيانُهم بسلطان؛ حُذِفَ الجواب مِنَ النَّصِّ مشاكَلةً، كما أنَّ في حذف المتعلَّق إنكارَ اتِّصافهم بصفة الصِّدق على وجه المبالغة والتَّعميم، فإنَّ مَن يفتري مثل ذلك الافتراءِ ينتفي عنه وصفُ الصِّدق فيما قاله انتفاءً أوَّليًّا، ويشمل عدمَ صدقهِ في كلِّ ما يقوله[3].

دلالةُ توالي الاستفهام في الآيات:

تسفيهُ أحلامِ مشركي قريش وتجهيل نفوسهم واستركاك عقولهم

تكرَّر الاستفهام الإنكاريُّ في سياق قول الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾، ناعيًا على مشركي مكَّة جهلَهم المُفرِط، القائمَ على ثلاث جهالات: أولاها: التَّجسيم؛ لأنَّ الولادة من خصائص الأجسام، وثانيتها: تفضيل أنفسهم على ربِّهم، حيث جعلوا أوضعَ الجنسين - في اصطلاحهم ومفهومِهم - لله، تعالى عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا، وادَّعَوا أرفعهما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 265.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 101، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/ 45.

لهم، وتلك جهالةٌ ما بعدها جهالة، وثالثتها: أنَّهم استهانوا بأكرم خلق اللّهِ وأقربهم إليه، حيث أنَّثوهم، وقد كانوا يتعايرون بوصف الأنوثةِ، ويعتبرونه مِن دلائل المهانةِ وسمات الخِسَّة.

فهذه الآياتُ صادرةٌ عن سخط عظيم، وإنكار فظيع، واستبعاد لأقاويلهم شديد، وما الأساليب الَّتي وردت عليها إلّا ناطقة بتسفيه أحلام قريش، وتجهيل نفوسها، واستركاك عقولها، مع استهزاء وتهكُّم وتعجيب، من أن يُخْطِر مُخطِرٌ مثل ذلك على بالٍ، ويحدِّثَ به نفسًا، فضلًا بأن يجعله معتقَدًا، ويتظاهرَ به مذهبًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّلطان والآية والحجَّة والبرهان:

السُّلطان أقوى الأدلَّة، والآية علامة فارقة، والحجَّة إثبات وجه الدَّلالة

أصلُ السُّلطان من السُّلطة والقوَّة، ومنه السَّليط لقوَّة اشتماله، والسَّلاطة لحدَّة اللِّسان[2]، والسُّلطان: إظهارُ ما يتسلَّط به على نقيض المعنى بالإبطال[3]، أمّا الآية؛ فهي العلامةُ[4]، والحجَّة في كلام العربِ ما يُقصد به إثبات المخالِف بحيث لا يجد منه تخلُّصًا، والبرهان: هو إظهار صحَّة المعنى وإفساد نقيضه[5].

فالسُّلطان أقوى هذه الألفاظ، فهو حجَّة موضِّحة للحقِّ[6]، ويدلُّ على معنى زائد عليها، وهو القوَّة في التَّنفيذ؛ ولذلك آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَهُ في الرَّدِّ على المشركين.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 64، ودرويش، إعراب القرآن: 08/ 314.
(2) الكفويّ، الكليات، ص: 493.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والكفويّ، الكليات: 3/ 3.
(4) ابن فارس، المقاييس: (أيي).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والجرجاني، التّعريفات، ص: 35.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»